

الاستقامة وإصلاح النفس وتزكيتها



«يتنازع الإنسان في هذه الحياة عاملاً للخير والشرِّ، وكثيراً ما ينساق إلى أحدهما بدافع داخلي أو مؤثر خارجي.

والدِّين من أهم أهدافه وقاية الإنسان من نزعات الشرِّ ببيان ضرره والتحذير منه ودعوة الذين تورطوا فيه إلى الاستقامة تبعاً لما رسمه ﷻ لعباده، فالاستقامة هي أقوى سبب للرفق الأدبي وما سيطرت هذه الرغبة في قوم إلا صلح حالهم واستقر السلام فيما بينهم.

والإنسان إذا لم تصاحبه الرغبة في الاستقامة ضعف إقباله على الخير، وأصبح هدفاً سهلاً للتورط في الآثام، لهذا نرى الإسلام أولى الاستقامة اهتماماً خاصاً، ودعا إليها بأسلوب شائق يستهوي الأنفس ويؤثر في أعماق أعماقها بما وعد المستقيمين من الأجر العظيم وحسن المثوبة في الدنيا والآخرة. قال سبحانه:

(إِنَّ السَّادِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * زَحْنٌ أُولِيَّكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) (فصلت/ 30-31).

ويطمئنهم ﷻ بقوله: (إِنَّ السَّادِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (الأحقاف/ 13). أي لا خوف عليهم من عذاب يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم.

وجاء رجل إلى الرسول (ص) فقال: أوصني يا رسول ﷻ فأجابه الرسول بهذه الكلمة الموجزة الوافية: "قل آمنت بـ ﷻ ثم استقم".

إصلاح النفس: ومما يتوافق مع معنى الاستقامة إصلاح النفس، لأنَّ التماذي في الشرِّ يجر إلى أوجم

العواقب على النفس الإنسانية وعلى المجتمع ولهذا وعد الله الذين يصلحون أنفسهم، بالغفران والرضى، قال سبحانه:

(فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة/ 39).

ويخاطب الله الناس جميعاً داعياً لهم لإصلاح أنفسهم:

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَامَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (الأعراف/ 35).

تزكية النفس؛ ومما ينسجم مع الاستقامة ما عبّر عنه القرآن أيضاً بتزكية النفس، ومعناها: الطهر من الأدناس، والسموم عن النقائص، ووضع النفس حيث يطيب موضعها، ويرتفع قدرها، لتأخذ عند الله حظها من الرضوان، وبين الناس نصيبها من الكرامة. ولقد حث القرآن على تزكية النفس هذه ووعد بالفلاح من أخذ بها، فقال سبحانه: (فَدِّ أَفْوَاجَ مَنْ تَزَكَّى) (الأعلى/ 14).

وقال سبحانه في النفس الإنسانية: (فَدِّ أَفْوَاجَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدِّ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس/ 9-10).

وبيّن سبحانه أن تزكية النفس لا يعود نفعها إلا على صاحبها، فهذا يجب الحرص عليها: (وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) (فاطر/ 18).

إن الاستقامة وإصلاح النفس وتزكيتها صفات تفتح باب الأمل للذين تورطوا في الإثم لتغيير حياتهم إلى حياة أفضل، وتبعد عنهم اليأس من إصلاح أنفسهم، لأن اليأس إذا تمكن من نفوسهم جعلهم عنصر شر لا يمكن إصلاحه.

إن هذه التعاليم تلخص كل مكتشفات علم النفس الحديثة التي تقول: إنّه لن يتسنى لنا الحصول على الشخصية الناجحة أو الخلق القويم عن طريق التأمل الباطني الصرف بل عن طريق تدريب النفس، أي تهذيبها وحكمها والسيطرة عليها. ▶

المصدر: كتاب روح الدّين الإسلامي